الحلقة 1

كنت هناك..

الشلفي يكتب لـ"مأرب برس" سلسلة حلقات عن رابعة التي رأى

يكتب الصحفي أحمد الشلفي سلسلة حلقات خاصة لصحيفة مأرب برس عن ما شاهده حول أحداث مصر واقتحام ميداني رابعة العدوية والنهضة أثناء زيارته للمصر، ينثر خلالها مأساة اقتحام الميدانين وأجواء الاعتصام بميدان رابعة.

أمسكت بالقلم ونحن في الجو على متن طائرة اليمنية المتجهة من مطار القاهرة إلى صنعاء فعلاً أصبحنا في الجو.

ولم يحدث مما توقعنا جميعًا في المطار أي شيء.. لا استوقفني أحد ولا سأل عن هويتي أحد.

الحمد لله.

هاأنذا في السماء ولكن روحي الفزعة في الأرض.

اليوم هو السبت السابع عشر من أغسطس الرابعة وخمس وأربعون دقيقة عصرا.

بحثت عن ورقة فلم أجد فاستخدمت ذلك الكيس الورقي الموجود على ظهر المقعد قسمته نصفين وطلبت من المضيف أن يمنحني قلماً فأعطاني وبدأت أكتب.

لم يكن حبراً.. كان قلمي يسكب دمعًا ساخنًا والقلم عندما يبكي يتعثر الكلام كأنما يغتسل في بحر حزين وكأنه لا يجيد السباحة.

هل تعرفون كيف ؟

يجعلك هذا النهم الوحشي للدم والمجازر الذي رأيته في مجزرة الأربعاء ١٤ أغسطس برابعة العدوية بالقاهرة تفقد كونيتك وانتماءك للإنسان.

يحدث الأمر في داخلك.. إذ يذوي شيء ما وينهار فجأة دون أن يستأذنك.

هل جرب أحدكم يومًا شعور الوحش والإنسان في آن إذ يبدو أن مشاهدتك الذاهلة لشيء يشبهك يحصد أرواح كائنات مثلك يجعلك تشك بمشروعية وجودك ككائن بشري طيب ومسالم.

يسيطر عليك الذهول..

حينا تبكي

وحينا تطوح بيدك في الهواء..

وحينا تحدق بغباء ذلك الساذج الذي لم يكن يتخيل هذا المشهد.

السيسي وشيطنة أعدائه

حالة انقسام إذن في داخلك تشبه حالة الانقسام الرهيبة والبشعة التي يمر بها شارع مصر وحالة الكراهية البشعة التي كرسها إعلام مصر للكراهية.

لازالت ترن في أذني كلمة أحد المذيعين في إحدى قنوات مصر وهو يتحدث عن من يصفهم بالإرهابيين في رابعة قائلاً:

اقتلوهم زي الصراصير.

ماالذي سأتذكره أولا؟

قبل المذبحة كنت أحلم بأن أعود من القاهرة وقد استطاع المصريون تحقيق توافق وطني يحفظ الدم والروح والكرامة.

لكن موجة الكراهية العارمة لم تكن لتسمح بذلك مدججة بطموح هستيري لرجل مخابرات يعمل قائدًا للجيش ويجيد كل الألاعيب لشيطنة أعدائه (الإخوان المسلمون) ويحظى بدعم دولي وإقليمي.

قام خصوم رابعة بشيطنة المكان والإنسان وجمعوا الوثائق والأدلة بمزاج تصفوي استئصالي ثم نفذوا الجريمة وكان الأمر للجنود والشرطة والبلطجية بالقتل المباشر لفض الاعتصام وليكن الثمن أي شيء وقد حدث هذا.

كنا في حالة غيبوبة أمنية ربما هذا أفضل توصيف لما شعرنا به الأربعاء.

خرجت من رابعة العدوية الواحدة بعد منتصف الليل بعد أسبوع متواصل من السهر حتى ساعات الصباح وأحيانًا حتى الظهر في انتظار تنفيذ الداخلية والحكومة تهديداتها بفض الاعتصام.

كل تلك الأيام كنا في الميدان في انتظار أي هجوم لنقوم بتغطيته كانت الطائرات تحوم على مدار الساعة ولم تبد أية مظاهر غير عادية للشرطة.

كنت والزميل عبد الله الشامي مراسل الجزيرة الأكثر تواجدًا في ميدان رابعة وكان يشترك في التغطية معنا الزميل مراد هاشم في نوبات متبادلة وقبل أن يتجه إلى ميدان النهضة كان زميلنا وليد العطار يغطي أيضًا.

هاجس فض الاعتصام

فض الاعتصام كان هاجسًا فعلاً.

لكننا لم نكن ندرك كيف تجهز الداخلية والجيش خطتها لذلك وكنا يقظين على مدار الساعة إلا أنه في يوم الثلاثاء ما قبل المجزرة لم نشاهد ما يدل على ذلك كما لو أنهم استنفروا الناس لأيام ثم انتظروا حتى يشعر المعتصمون بالاسترخاء ليبدؤوا الهجوم.

تحدثنا كثيراً مع شباب وصحفيين وقادة معارضين للانقلاب حول فض اعتصام رابعة لكن خيالي لم يتصور أن ذلك سيحدث.

دعوني أصور لكم رابعة الميدان بكل ما فيه ومن فيه.

الميدان يمتد طوليًا من شارع النصر باتجاه شارع المنصة أو تمثال المنصة على نحو أكثر من كيلومتر ثم يتفرع بعد ذلك داخل الشوارع الرئيسية ومداخل الحارات وفي كل شبر منه تنتصب خيمة كبيرة أو صغيرة أو متوسطة أو تلك الخيام الخشبية الهائلة بعضها أخذ شكل ثلاثة أدوار وقد بدأت تبنى قبل فض الاعتصام بأيام فسر البعض ذلك حتى يصعب فضه على الداخلية.

أما المعتصمون فهم لا يقلون بحسب تعداد شخصي كنت أقوم به في الحالات العادية عن مائة ألف ونحو ثلاثين في المائة من المعتصمين يسكنون الخيام مع نسائهم وأطفالهم.

كنت أعرف ذلك عندما يدعى الناس للخروج من خيامهم خاصة أثناء تحليق المروحيات أو في ذلك اليوم الذي أطفأ التيار الكهربائي فيه فقد كان الميدان يمتلئ.

لكنه في أوقات الحشد والدعوة والذروة وما بعد العاشرة مساء أو في يوم عيد الفطر فإن الأعداد قدرت بمئات الآلاف إذ يشهد اكتظاظًا غير عادي.

بعض العائلات والنساء والأطفال قدموا من محافظات خارج القاهرة ويقيمون في الميدان منذ الثامن والعشرين من يونيو قبل انقلاب الثلاثين من يونيو على الرئيس المعزول محمد مرسي.

يغلب الميدان الطابع السلمي الثوري والاجتماعي والروحاني إذ أن المعتصمين وعوا خطورة وجود أي سلاح داخل الميدان وأن ذلك سيعزز شائعات الإعلام المصري بأنهم إرهابيون ويمتلكون سلاحًا.

وكان الميدان فعلاً بدأ باجتذاب عائلات ومواطنين من كل أبناء مصر خاصة بعد مجزرة المنصة التي راح فيها مئات القتلى والجرحى.

أما روح المعتصمين فإنها تتسم بالانضباط والتعايش والفدائية السلمية التي لم أعرف مثلها قط.

كل ذلك جعلني أجزم أن اقتحام الميدان سيكون عملية مستحيلة وأن القيام بذلك سيكلف بحرًا من الدماء وكنت أشكك بنية الداخلية والجيش المصري على ارتكاب مجزرة كتلك التي قتل وجرح فيها آلاف.

لكن السلطات المصرية فعلت ذلك وكلف مصر ذلك كثيراً ولم يكن أمامها من حل أمام صمود المعتصمين سوى استخدام الرصاص الحي لقتل المعتصمين بشكل مباشر.. أعرف أن كثيرين يشككون بمقتل أكثر من ألفين وستمائة في فض اعتصام رابعة لكني أعتقد أن العدد ربما يزيد على ذلك وسنترك ذلك للأيام.